



مؤتمر  
هَدَايَاتُ الْقُرْآنِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ

## عنوان البحث:

المسار المجازي في القرآن الكريم: البناء العقدي للإنسان

## اسم الباحث/ة

د/ إيهاب محمد أحمد حسن

قسم اللغة العربية وآدابها- كلية اللغات والعلوم الإنسانية-  
جامعة القصيم





مؤتمر

هدايات القرآن في بناء الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



### المقدمة

الحمد لله منزل القرآن معلم البيان. والصلاة والسلام على رسول الرحمة.

أما بعد:

الإسلام هو الدين الخاتم، والقرآن كتابه الذي يخاطب الثقلين، ويمتد ذلك الخطاب حتى قيام الساعة، وفي ذلك الخطاب يتلقى الإنسان في القرآن الكريم ما يعرفه بربه سبحانه، ويتلقى المسلم تعاليمه التي يصحح بها عقيدته وسلوكه. وفي نفس كل إنسان شعور بأن الحياة طريق يمشي فيه بين ميلاده وموته، ومن هنا جاء مبدأ المسار المجازي ليتوافق مع ذلك الشعور الإنساني المتأصل داخل النفس البشرية. ومن هنا أيضاً نبعت أهمية موضوع هذا البحث، فالمسار المتخيل يحيل على حياة مادية يعيشها الإنسان، والمسار الذي خطه القرآن للتقلين مسار مجازي يتوافق مع ذلك المسار المتخيل.

**ورب قائل:** ذاك أمر أفرغت فيه الجهود وشابت في سبيله رؤوس العلماء، وأفرغت فيه المحابر، فيجاب عليه بأن القرآن كتاب معجز متجدد، ما يزال يدهش البشرية كل يوم بجديد، وهذا البحث محاولة لاستقصاء ذلك الجديد المرجو في مظان المسار المجازي، فكل البحوث السابقة نظرت في ذلك المسار، ولكن النظرات تشتت ما بين قديم وحديث، وما بين فقيه وداعية ومفسر، كلهم يسعون لتنظيم مسار ذلك المخاطب، وكلهم تثمر جهودهم بالأحكام واضحة، ومكارم الأخلاق ما تزال تسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم.

إلا أن أهمية هذا البحث تكمن في نقاط دقيقة وجدت آلاف الالتفاتات إليها، لكنها لم تجد تجميعاً لمنهج يوضح طبيعة تعامل الكتاب الحكيم مع السائرين على المسار المجازي، فلم أعثر على دراسة تناولت الصراط في القرآن الكريم من جهة كونه عامل بناء إرشادي للشخصية الإنسانية، وعامل بناء سلوكي وعقدي للإنسان المسلم. فجاء هذا البحث محاولة متواضعة للنظر في

طبيعة المسار المجازي وإطاره النظري والفكري، وطبيعة التراكيب اللغوية التي صيغ فيها الحديث عنه.

كل أولئك كان واقعاً علمياً في بحوث الأسلاف والمعاصرين، لكن السلوك ظل هو المبتغى دون النظر في إطاره الفكري وسياقات اللغة التي حملت الإرشاد إليه. ولست مدعياً إلا أنني قد أعدت ما قاله الأوائل. لكن في صورة جمعت الأركان، ووضعت الإطار النظري لما اجتهدوا في تطبيقه.

**وقد قام منهج هذا البحث على فكرتين:**

**الفكرة الأولى:** سهولة المقال وبساطته، مع الميل إلى الحراك داخل المعهود المقبول، بعيداً عن إغراب القول في زمان أمست فيه غرابة الفكرة أقرب طريق لانتشارها.

**الفكرة الثانية:** العودة للغة في طابعها المعجمي والتركيب، والعودة لما قاله المفسرون قديماً وحديثاً تاركاً الضرورة العلمية تقودني لاختيار المرجع، مع إيلاء الأهمية للقديم قبل الحديث، ومع الأخذ بالاعتبار أن الأمور التوقيفية ليست مجالاً لمستحدث القول أو بعيدة عن الحق. وقد حاولت ما وسعني ألا آتي بفكرة لا أصل لها لدى السابقين إلا إن كانت في نطاق المقبول الذي لا خلاف عليه من واضح لغة الكتاب الحكيم.

**أما خطة البحث فقد كانت كما يلي:**

**مقدمة.**

**المبحث الأول:** الصراط: البناء العقدي والسلوكي

**المبحث الثاني:** البدايتان: عقيدة المسلم القرآنية

**المبحث الثالث:** الفرق اللغوي بين الصراط والسبيل

**خاتمة:** التوصيات والنتائج

المبحث الأول: الصراط: البناء العقدي والسلوكي

توطئة:

يقتضي مفهوم المسار أن يكون هناك سير وأن يكون هناك سائر، ولأن الصراط طريق غير مرئي فالسير فيه دون شك سير مجازي، وهو كذلك مفهوم مجازي، قال الطاهر بن عاشور في تفسير الفاتحة: "والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغ به مدرُّه إلى الفوز برضاء الله، لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه" (١)

وقد أشار الحكيم الترمذي إلى المسار المجازي بحدِيثه عن أن المشي على نوعين: "مشي هو نهوض القلب ونيته وقصده إلى الله في الأعمال ... ومشي على القدمين" (٢)

وفي التاريخ الفكري لسلف الأمة جهود دلت على مجازية هذا المسار لعل أقدمها كتاب منازل السائرين لعبد الله الهروي الملقب بشيخ الإسلام، فمن الواضح أنه مبني على مبدأ مجازية السير ومراتبه، وقد تحدث عن رتبة سماها أخذ القاصد في السير (٣)، بأن معناها يتجسد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم "سيروا، هذا جمدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات" (٤)

وقد شرح الحديث يحيى بن هبيرة بقوله: "فيعني صلى الله عليه وسلم أن السير والسبق إنما هو بالذكر، فهو سير بالهمة، فهو يُشَبَّه قطع مفازات الأعمار بسعي الأقدام

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ١/١٩٠.  
(٢) تحصيل نظائر القرآن، الحكيم الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ص ٣٢.  
(٣) منازل السائرين، عبد الله الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٧.  
(٤) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ٤/٢٠٦٢.

في قطع مفاوز الأرض" (١)

وقد أخذ ابن القيم فكرة مجازية السير، وبنى عليها كتابه "مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، وهو عبارة عن شرح لكتاب "مازل السائرين" للهروي (٢)

وكتابا الشيخين "الهروي، وابن القيم" يقومان على تفصيل فكرة المسار المجازي بعد تنزله السلوكي، فهما يقيمان نظرية سلوكية ترشد لسلوك المسلم ليصل إلى مقصده في مسيره إلى الله. ويقوم العنوانان على فكرة المسير: السائرين، والسالكين، فيقال "سلكت الطريق أسلكه" (٣) وربما نجد ما فعلاه مختصراً في قول ابن تيمية:

"ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات"

ومنهج الشيخين يقوم على فكرة المسار المجازي وارتباطه بلفظ "الصراط"، ويؤكد الاهتمام العلمي ببناء الشخصية المسلمة في عقيدة المسلم وسلوكه، وليست مهمة هذا البحث التعقيب على ما فعلاه، بل سيبحث في ماهية المسار المجازي، وحقيقته التي قررها الكتاب الحكيم.

أما عن تعريفاته الاصطلاحية وآراء المفسرين فيه فقد ورد كل ذلك في موسوعة التفسير الموضوعي:

(١) الإفصاح في معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، ٢٨٣/٨.

(٢) انظر مقدمة التحقيق: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ١٥/١

(٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص ٤٦٢.

الصراط<sup>(١)</sup>، مما أغنى عن ذكرها هنا، بل سيكون التركيز في هذا البحث على كل ما يرتبط بمبدأ بناء الإنسان.

**الصراط لغةً:** مبدأ الحديث عن الصراط باعتباره مساراً مجازياً سينطلق دون شك من اللغة، ويبدأ انطلاقه بالقراءات. حيث تعددت قراءات الصراط في "الصاد" على ثلاثة أوجه: السين، والصاد، والزاي على الإشمام وعلى الزاي الخالصة.<sup>(٢)</sup>، وقال الزمخشري: والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: مصيطر، في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي، وقرئ بهن جميعاً، وفصحاهن إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام<sup>(٣)</sup>

وقال ابن خالويه: قوله تعالى: الصِّراطُ. تقرأ بالصاد والسين وإشمام الزَّاي. فالحجة لمن قرأ بالسين: أنه جاء به على أصل الكلمة. والحجة لمن قرأ بالصاد: أنه أبدلها من السين لتؤاخي السين في الهمس والصَّفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق، لأن السين مهموسة والطاء مجهورة، والحجة لمن أشمَّ الزَّاي: أنها تؤاخي السين في الصَّفير وتؤاخي الطَّاء في الجهر<sup>(٤)</sup>

**مما تقدم يتضح** لنا أن أصل اللفظ هو السين، والصاد والزاي جاءتا لاعتبارات صوتية، ومن جهة أخرى فقراءة الصاد هي لغة قريش، وهي الثابتة في المصحف الإمام. وقد اتفقت المعاجم على الحديث عن الصراط تحت مادة (سرط)، وهذا إجماع يجعلنا نطمئن لأن الأصل الموصل إلى المعنى اللغوي والاجتماعي هو (سرط)، قال ابن فارس:

(١) انظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الصراط، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ، المجلد الحادي والعشرين، ص ٨ وما بعدها.

(٢) انظر: شرح طيبة النشر في القراءات، شمس الدين بن الجزري، تحقيق الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص ٤٩.

(٣) الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شبحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ٢٩/١

(٤) الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص ٢٠.

(سرط) السين والراء والطاء أصل صحيح واحد، يدل على غيبة في مر وذهاب. من ذلك: سرطت الطعام، إذا بلعته؛ لأنه إذا سرط غاب. وبعض أهل العلم يقول: السراط مشتق من ذلك؛ لأن الذاهب فيه يغيب غيبة الطعام المسترط" (١).

وقال الزمخشري: (السراط) الجادة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه، كما سمي: لقماً، لأنه يلتقمهم" (٢).

إن لفظ الصراط لفظ عربي ويدل على ذلك تعدد اللغات في النطق به بين الصاد والسين والزاي، ويدل عليه أيضاً تعدد الاشتقاقات من الجذر سرط، وهنا تستوقفنا مقولة أن الصراط لفظ مأخوذ من (strata) اللاتينية (٣) وهو رأي قديم تحدثت عنه كتب علوم القرآن (٤)، وقد رد هذا الرأي "عبد الكريم أمين" بكثير من الأدلة المنطقية واللسانية، فهو يستغرب "أن يلجأ العرب، والبدو بمخاصة إلى استعارة كلمة لاتينية للدلالة على الطريق مهما كانت ضخامته واستقامته. لم تفتقر اللغة الفصحى إلى أسماء الطرق والأسفار، الطريق يؤدي بهم عبر المهاووي والأخطار إلى الموارد والمراعي، إلى الحلول والسلامة، أما العدول عن الهدى فيفضي بهم إلى الضلال، إلى عذاب الجوع والظمأ" (٥).

وربما أدت عروبة اللفظ إلى الحديث عن أمر قد يبدو غريباً، فلفظ الصراط لفظ دال على مفرد، ورغم تحرك مفهوم الاشتقاق في ساحة اللفظ فإن ذلك الاشتقاق لم يورد للفظ جمعاً، ولم أعثر له على جمع في شاهد عربي جاهلي

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ص ٤٩١.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢٩/١.

(٣) أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، مجلة كلية الشريعة، جامعة القرويين، العدد ٢٠، ١٩٩٥م، صفحات: ٨٥-١٠٦.

(٤) الإلتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ، ٣/٩٥٦.

(٥) أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، ص ٩٢.

ولا إسلامي لشعر أو نثر، فترى أبا هلال يؤكد ذلك بقوله: الصراط هو في العربية الطريق الواضح السهل، يذكر ويؤنث، مثل: الطريق، والسبيل ولم نسمع له بجمع، والقياس: أصرط، وصُرط" (١)

وقال الألوسي: "ويجمع في الكثرة على صراط ككتاب وكتب، وفي القلة قياسه أصرط، هذا إذا كان الصراط مذكراً، وأما إذا أنث فقياسه أفعل نحو ذراع وأذرع" (٢). وقال النحاس: "وجمع في القليل أصرط وفي الكثير صراط" (٣) وقال ابن سيده: وكتاب الله تَعَالَى نزل بتذكير الصراط وجمعه في القبيلين أصرط وصُرط" (٤).

فهذه الأقوال تؤكد أن اللفظ لم يعرف له جمع، فقد أقرروا جميعاً بأصالة الاشتقاق لكنهم لم يوردوا شاهداً، فما السر وراء هاتين السمتين؟ إن الصراط في القرآن كله لله وحده لذا فهو صراط واحد؛ لأنه يسير إلى رب واحد، قال ابن القيم عن الصراط في سورة الفاتحة: وذكر الصراط المستقيم مفرداً معرّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له" (٥)

- 
- (١) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٢٨٦
- (٢) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ١/٩٥.
- (٣) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق خالد العلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ١٤٢٩م، ص ١٤.
- (٤) المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ١٤٢/٥.
- (٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ٣٧/١.

وقال أيضاً في اجتماع الجيوش الإسلامية: "فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه ... وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فجمع سبل الباطل ووحيد سبيله الحق" (١)

وتلك قمة التأكيد على أهمية بناء عقيدة المسلم، وهو بناء لمفهوم التوحيد الذي يعبر عنه في لغة القرآن لفظ لا جمع له، لا في القرآن ولا خارجه، وهي نتيجة أطمئن إليها طمأنينة علمية، يؤيدها ما ذكره الباحثون في أمر اللفظ، فحديثهم عن القياس يفهمنا أنهم لم يعثروا على شاهد، فذهبوا يقيسون على ألفاظ أخرى، أو قل على قاعدة صرفية بنائية، المهم ألا وجود لشاهد يؤيد قياسهم وإلا لساقوه.

#### سؤال الهداية:

يسأل المسلم ربه الهداية إلى الصراط، وهذا يقتضي أن يلحق المسلم أن السؤال يقتضي تجنب نقيض المطلوب، لذا فنحن أمام ثلاث طوائف بشرية:

#### المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالون:

ستجد اتفاقاً لدى المفسرين على أن هذا الإنعام يفسره قوله تعالى:

﴿وَوُؤُ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَتَّبِعُهُمْ مِن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَكَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩]

جاء في تفسير ابن كثير: "عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصدّيقين،

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ، ١/ ٤٣

والشهداء، والصالحين" (١) . ولكن تفصيلات الكتاب الحكيم تمنحنا المزيد، وذلك عبر البحث عن مفهوم الإنعام، الذي يحملنا إلى لحظة اكتمال الدين: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَحُمُّ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتَهُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فَسُقُ الْأَيُّومَ بِمَيْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ أَيُّوماً كَمَلَتْ لَكُمْ دِينُكُمْ وَأَتَمَّمْتَ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْضَةِ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣].

فأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم منعم عليها، فمن يتبع تفاصيل البناء العقدي والسلوكي المكتمل فقد دخل ضمن المنعم عليهم، وبذلك على ذلك الرأي القائل إنها آخر ما نزل من القرآن، وأنها قد نزلت في حجة الوداع (٢)، ومع الانتباه لتناسب صدر الآية بختامها سنصل إلى حقيقة الإكمال والاكتمال،

فسياق النزول حجة الوداع، والحج هو الركن الخامس للإسلام، وبه يكتمل الدين، فضلاً عن تناسب (لغوي) بين الإكمال وتحليل الطعام وتحريمه، فإذا عرف المسلم ما يحل له من الطعام وما يحرم، فهذا يقتضي أن أمر الهداية الروحية قد اكتمل قبل النظر في الأطعمة (٣)،

إنها إشارة مؤكدة لاكتمال بناء الإنسان المسلم عقيدة وسلوكاً، وهاهنا سر اكتمال النعمة التي يعيدنا ذكرها إلى صراط المنعم عليهم.

ومن جهة أخرى إن كان الاهتداء إلى الصراط هو المطلوب فقد وضح ذلك في القرآن نفسه في سورة الفتح:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٤٠

(٢) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ١/١٨٨

(٣) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/١٠٣

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]

الآية تخاطبنا كما تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا سألنا الله تعالى صراط المنعم عليهم فالآية ترشدنا إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم فقد تمت نعمة ربه عليه بالفتح الديوي والغفران الأخروي.

وفي نفس السورة خطاب للصحابة رضي الله عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِرَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَقَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-٢٠]

إنهم أهل بيعة الرضوان، ومعنى ويهديكم هنا "ويسدّدكم أيها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم" (١) ولنتأمل في التضاد بين التركيبين: (عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ - لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) (وَلَا الضَّالِّينَ - وَيَهْدِيكُمْ)، القرآن يرشدك إلى أهل الاهتداء والرضوان فاتبع سبيلهم.

ومما يجب أن نلفت إليه النظر أن القرآن كله لا يحمل إشارة إلى جماعة بشرية هديت إلى الصراط المستقيم سوى هؤلاء نفر الكرام.

ويتعمق الأمر لأبعد وأكبر من ذلك في آية شديدة الارتباط بسياق الفاتحة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَهُوَ قَدِمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٥﴾ وَعَآئِنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٦﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢١/٢٨٣

(أَهْدِنَا الْمُسْتَقِيمَ - وَهَدِنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ - شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ) ، فقد هداه الله " وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية" (١) وهما أهل الغضب والضلال. ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملته:

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا قَمَلَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وانظر إلى فعل الأمر " قُلْ "، فالأمر ليس من الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو تقرير إلهي بتلك الهداية. فالصراط إبراهيمي محمدي. وأصل الحنيفية الميل والاستقامة معاً "والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق" (٢) إن البناء العقدي للمسلم يفضي به إلى مرجعية تاريخية تتمثل في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يوضح ما طال الديانتين السابقتين من التحريف، ويمنح كل باحث عن الحق تعريفاً عقدياً تاريخياً لذلك الحق.

(١) الطبري، جامع البيان، ٣٩٣/١٤

(٢) الكشف، الزمخشري، ص ٩٩

المبحث الثاني: البدايتان: عقيدة المسلم القرآنية.

كيف بدأ ذكر الصراط في القرآن الكريم؟ وكيف انتهى؟ وما علاقة البدايات بالنهايات؟.

بتتبع المسار التاريخي لأحداث القرآن، وبالنظر في ترتيب سور القرآن في المصحف نصل إلى أن أمر الصراط قد بدأ في القرآن الكريم بدائتين:  
البداية الأولى: تاريخ العدا:

إذا رتبنا الأحداث القرآنية ترتيباً تاريخياً فإن أول ورود لذكر الصراط في تلك الأحداث كان قبل الهبوط للأرض، في الحوار بين المولى سبحانه وإبليس الذي رفض السجود لآدم عليه السلام، وذلك في موضعين:

الذكر التاريخي الأول للصراط:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٤].

هذا أول ورود للصراط في أحداث الكتاب العزيز، وهو بمثابة الإخبار الأول لإبليس بمحدودية سلطانه في الإغواء، وتلك الأولية تأتي مصحوبة بإشارة إلى المسار المجازي: "هَذَا صِرَاطٌ"، قال الطاهر بن عاشور: فالإشارة إلى ما يؤخذ من الجملة الواقعة بعد اسم الإشارة المبينة للإخبار عن اسم الإشارة وهي جملة إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، فتكون الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلاً له منزلة المشاهد، وتنزيلاً للمسموع منزلة المرئي. ثم إن هذا المنزل منزلة المشاهد هو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره. فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن، ... "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ" لتضمنه أنه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير، فتكون جملة :

"إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ"

مستأنفة أفادت نفي سلطانه" (١)

أما "عَلَى" فقد قيل إنها "بمعنى: هذا طريق إلىّ مستقيم" (٢)

وقال القرطبي: فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلى فأجازي كلاً بعمله، يعني طريق العبودية. وقيل: المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان" (٣). ويأتي ابن عاشور بالقول الفصل: "والمعنى أن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً، أي مائلاً للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر" (٤).

علم إبليس أن الله سبحانه لن يترك له خليفته تركاً مطلقاً، فقد كان ضمن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣١]

وقد دلت الأخبار الواردة في خلق آدم عليه السلام أن إبليس كان يطيف بجثته قبل نفخ الروح فيها (٥) فضلاً عن الجار والمجرور في سورة البقرة: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، وفي سورة الحجر "لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ"، وكذلك فإن ظاهر

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٥١/١٤

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ٦٩/١٤

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ٢٧/١

(٤) التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور، ٥٢/١٤.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ١٣٠/١

نظم الآيات من سورة "الحجر" يشير إلى أن الملائكة المخاطبون بمعلومة الخلافة هم الملائكة المأمورون بالسجود،

وهذا يدل على أن إبليس المتوعدّ كان يعلم بأمر الخلافة، وهو علم يشعره بمحدودية قدرته على الإغواء، فأمر الخلافة مفروغ منه، فقد وقع في نطاق الإخبار الإلهي الواقع لا محالة. قال ابن كثير: "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ... فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء... (١)

هذا الشعور جعله يستثني: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ"، وما نبع هذا الاستثناء إلا من يقين بأن هذا الخليفة بين صلاح وفساد، فليس كله صالحاً، ولكن نصيبه منه محدود.

### الذكر التاريخي الثاني للصرات:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

ما نزال مع البداية الأولى في الحوار بين المولى سبحانه ولعينه إبليس، ففي قوله (صِرَاطَكَ) دليل على معرفته بالمعهد الذي كان مبهماً، فقد عرفه به وصف المولى له بأنه خاص بعباده الذين لا سلطان له عليهم، فيخرج إبليس من وسيلتي الإغواء والتزيين لوسيلة ثالثة هي القعود،

قال الطبري: "وإنما أخبر عدو الله أنه يقعد لهم صراط الله المستقيم، ولم يخصص منه شيئاً دون شيء... ؛ لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصد عن كل ما كان لهم قرينة إلى الله" (٢)

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ١/١١٦

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ١٠/٩٤

وقد نظرنا في الذكر الأول للصرط ميلاً على بداية الصلة بينه وبين الإنسان،  
فأين النهاية؟

بالعودة لسياق سورة الحجر حيث الذكر التاريخي الأول للصرط سنجد ارتباطاً  
بين البداية والنهاية عبر مبدأ التناسب:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا  
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ  
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾  
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الْأَمْتَقِينَ فِي جَنَّتِ  
وَعْيُونِ ﴿٤٢﴾ أَذْخَلُوهَا بِسَلِيمٍ ءَامِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الحجر: ٣٩ - ٤٦

قال البقاعي: ولما ذكر الكافرين وما جرهم إلى الضلال، وجرأهم على قبائح  
الأعمال، ذكر المخلصين فقال- مؤكداً لإنكار المكذبين بالبعث: "إِنَّ الْأَمْتَقِينَ"  
أي العريقين في هذا الوصف، والمتقي: من جعل الإيمان بإخلاصه حاجزاً بينه  
وبين العقاب" (١).

وعن طريق تأثير السياق ودوره في تفسير القرآن نستطيع الربط بين  
العاقبتين والحوار بين المولى وإبليس، فللتناسب بين الآيات دور في تفسير  
القرآن الكريم (٢)

يذكر الصراط ثم يأتي بعده ذكر المآلين، إنه سياق يختصر التاريخ العقدي  
البشري بين بداية ذكر الإنسانية في القرآن ونهاية ذلك الذكر بالمآلين المرتبطين  
بالسلوك العقدي والاجتماعي، فقد ذُكرت جهنم أولاً لاقتضاء السياق في  
مقام توعده إبليس وأتباعه من الغاوين: "إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ" ﴿٤٣﴾ وَإِنَّ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي،  
القاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٠م، ١١/٦٣.

(٢) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة  
الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ١٢٧.

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ" فمسار الغاوين يؤدي إلى جهنم. ومسار المخلصين يؤدي إلى الجنات والعيون إِنَّ " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ " فمن ثمرات الإخلاص الأخروية النجاة من العذاب (١)

بدا تظهر أماننا البداية الأولى المتمثلة في الذكر التاريخي الأول للصراف فهي البداية الأولى لأنها تسبق ذكر كل أحداث الدنيا الواردة في الكتاب الحكيم، وتصحبها النهاية الأولى لأنها حملت العاقبتين: الجنة والنار للمسارين: مسار الرحمن ومسار الشيطان. فهاتان هما البداية الأولى والنهاية الأولى.

وهناك سياقات أخرى تحمل تناسباً بين الصراف والعاقبة، ففي سورة الحج:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ [الحج: ٢٣ - ٢٤]

فهي هداية دنيوية أدت بهم إلى الجنة، وفي سورة الأنعام: ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۚ فَذُكِّرْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنعام: ١٢٦ - ١٢٧]

إنه سياق أخروي يقدم له بذكر الصراف والآيات المفصلة لأبلولة المؤمنين إلى دار السلام، والمدخل المؤدي لتلك الأبلولة برابط الضمير المجرور باللام " لَهُمْ " أي للقوم الذين يذكرون. إضافة للارتباط اللفظي الصريح فقد ورد في صورة تشابه لفظي: هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ - وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا

ليس في القرآن ذكر صريح بربط مباشر للبداية الأولى بالنهاية الأولى، فليس هناك ذكر للقسم الشيطاني بالإضلال، بعده توضيح؛ لأن المستجيب للإضلال سيؤول أمره إلى النار، وأن المستجيب لنداء الصراف المستقيم سيؤول

(١) انظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الإخلاص، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ، المجلد الثاني، ص ١٣٤.

أمره إلى الجنة، بل تجد الارتباط بين المسارين والمآلين، حيث تذكر الآيات المسارين، بطريقة تحتاج منك إلى تفكير لتستخلصها، هي عزة الكتاب الحكيم تجعل بلوغ معانيه عزيزاً على غير طالبه، قريباً للمتدبر بعقله وقلبه. وهذه لبنة أخرى في لبنات بناء الإنسان عبر مفهوم المسار المجازي.

أما الارتباط غير المباشر بين الصراط والنار فنجده في سورة يس:

قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَدُّوا أَيْوَمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَءِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٥٩ - ٦١].

فالمشار إليه النبيوي يذكر مرة أخرى في أحداث الآخرة، مما يؤكد أن المشار إليه هو نفسه، إنه نفس المعهود الذهني في خطاب المولى جل وعلا لإبليس، فهذا مصير أولئك الغاوين الذين نجح إبليس في إضلالهم، والرابط هو قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْتَمِرُ مِنْ يُومِرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴿٢١﴾ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١]

أما تصديق إبليس ظنه فقد ورد بأنه بعد إغوائه لآدم "قال: إذا أصبت من الأيوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظنا من إبليس" (١) وآيات سورة سبأ تبني معرفة إنسانية بذلك العدو عن طريق درس عملي يتمثل في عاقبة دنيوية لمتبعيه من الغواة الذين صدق فيهم ظنه. فقد حملت تعريفاً بالعدو وبمآل طاعته واتباعه، وهي كذلك تبني معرفة بعاقبة السير على الصراط.

البداية الثانية: اتقاء العداء:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥١٣/٦.

وتتمثل في الفاتحة مفتتح الكتاب الخاتم، وتصحبها النهاية الثانية ممثلة في سورة الناس، فنحن معهما أمام بداية المصحف وختامه، ولنبداً بالحديث عن الفاتحة التي لها عدة أسماء منها أم الكتاب فهي التي "يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة"،

وقال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم {الحمد لله رب العالمين}

[الفاتحة: ٢] "هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته" (١)

وقال ابن حجر: "سميت أم الكتاب؛ لأن أم الشيء ابتداءه وأصله" (٢)

وقال أبو عبيدة: "وهي أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف قبل سائر القرآن، ويبدأ بقراءتها قبل كل سورة" (٣)

وقال الماوردي: "فأما تسميتها بأم القرآن فلتقدمها وتأخر ما سواها تبعاً لها،

صارت أمّاً لأنها أمته أي تقدمته" (٤). وسميت أيضاً سورة الدعاء، وسورة

السؤال، وسورة تعليم المسألة. (٥)

وها هنا يفتح باب التساؤل: لماذا سميت بكل تلك الأسماء، ولماذا كانت فاتحة

يبدأ بها في المصحف والصلاة؟ تحثنا الأحاديث والآثار عن فضلها، فعن

الحسن أن الفاتحة حوت كل علوم الكتب السماوية (٦)

وقال ابن عاشور: "هذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل

ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن" (١)

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ٤ / ١٦٢٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن البراك، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ٩ / ٦٢٩.

(٣) مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٦ / ١.

(٤) النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١ / ٤٦.

(٥) الاتقان، السيوطي، ١ / ٣٥١.

(٦) المرجع السابق، ٣ / ٣٦٤.

وأضيفُ إلى تلك الآراء رأياً آخر وهو ذلك الارتباط بين البداية والمبدوء،  
فالبداية الزمنية لمسار الإنسان تحدثنا عن تقرير أمر الصراط وآدم في الجنة قبل  
هبوطه للأرض، وهاهي البداية الثانية تحملنا إلى أمر الصراط عبر صورتين:  
صورة ارتباط الفاتحة بالقرآن باعتبارها مختصراً ومفتتحاً للكتاب الخاتم، وصورة  
تسميتها بسورة السؤال، فما السؤال؟ إنه الهداية للصراط المستقيم. ليعود إلينا  
الصراط مرة أخرى في صلة الإنسان بالقرآن، ولنعد للحوار الأول، ألم يقسم  
إبليس على إضلالنا؟: (هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) - تقابلها الفاتحة بسؤال  
الصراط المستقيم: لَا قُوعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ - تقابلها سورة الناس بالتعوذ  
من الوسواس الخناس

لقد ارتبط قسم إبليس بالإغواء بذكر الصراط مرة بقول المولى سبحانه ومرة  
بقول إبليس. فالقرآن يُفتتح بالذكر المباشر للصراط ويختتم بالذكر غير المباشر  
له بالتعوذ من ضده الشيطاني، وتلك إشارة واضحة إلى ما تضمنه القرآن ما  
بين البدء والختام من اتباع مسار الحق، وهو الصراط وتجنب مسار  
الشیطان: قال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ  
يَنْبِيءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي  
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ [يس: ٥٩ - ٦١].

وقد تضمن القرآن الكريم كل مقتضيات الاهتداء المنصوص عليها في  
تعليماته، وهذا ما يفهم بجلاء من خلال وجود مخاطبات النص القرآني بين  
السؤال والاستعاذة. وأول ذكر للصراط جاء في مفتتح سور القرآن والتعوذ من  
الشیطان الوسواس جاء في آخره. قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبية محمد  
صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد أستجير (برب الناس ملك الناس) وهو ملك

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١/١٣٥.

جميع الخلق: إنسهم وجنهم، وغير ذلك، ... وقوله: (إله الناس) يقول: معبود الناس، الذي له العبادة دون كل شيء سواه.

وقوله: (من شر الوسواس) يعني: من شر الشيطان (الخناس) الذي يخنس مرة ويوسوس

أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه" (١)

### السياق السابق لسورة الناس:

سبقت سورة الناس في خاتمة الكتاب الحكيم سورتا الإخلاص والفلق:

أما الإخلاص فقد رسخت فكرة الوحدانية للإله الحق سبحانه من لا إله إلا هو، ورسخت معها نفي كونه والدأً وكونه ولدأً، وهاتان الفكرتان تتواءمان مع

المسار الآخر المذكور في سورة الفاتحة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ هؤلاء هم اليهود والنصارى الذين خلخلوا مفهوم التوحيد

بفكرتي البنوة والأبوة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى

الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]

قال القرطبي في تفسير سورة الإخلاص: "وقال ابن عباس: لم يلد كما ولدت

مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير. وهو رد على النصارى، وعلى من قال:

عزير ابن الله" (٢)

فالأمتان المجعولتان نموذجين للمسار المضاد للصرراط قد خرقتا عقيدة التوحيد

متبنيتين فكرتي الأبوة والبنوة، فقبل التعوذ من الوسواس يرشد القرآن قارئه إلى

العقيدة الصحيحة التي خالفتها الأمتان الناكبتان عن الصراط.

ثم يعرض لقارئ القرآن أمر الدنيا وما يعترض السائر على الصراط فيها من

معاندة ومعاداة أهل الضلال، فتدله سورة الفاتحة على الاستعانة مصحوبة

(١) جامع البيان، الطبري، ٧٥٣/٢٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٢٧/٢٠

بالعبودية، ويعود خطاب القرآن بعد ذكر كل أشكال الاستعانة بمنزل القرآن ليدل قارئه على الاستعانة ختاماً كما دله على الاستعانة بدءاً.

قال البقاعي: لما افتتح سبحانه وتعالى هذا الذكر الحكيم بالهداية في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم ... وذلك أول منازل السائرين، وختم بتقرير أمر التوحيد ... وذلك هو نهاية المقامات عند العارفين، فتم بذلك الدين، وانتهى سير السالكين" (١)

"مِنْ شَيْءٍ مَا خَلَقَ" يحملنا على النظر في مفهوم التوكل فهو يقترب بالخلق في قوله تعالى:

"ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" الأنعام.

وقوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]

هكذا يصحح القرآن العقيدة ويوجهها إلى رب العالمين وحده، ويبين له ما يجب أن يترك ويفعل.

(١) نظم الدرر، البقاعي، ٤٠٦/٢٢

### المبحث الثالث: الفرق اللغوي بين الصراط والسبيل

أول ما يصادفه الناظر في ذلك الفرق هو وقوعهما مجرورين بالأداتين (على، وفي)، فليس في القرآن كله "في صراط"، وليس فيه "على سبيل"، ولتقف أولاً عند الصراط:

مواضع الاستعلاء (على صراط): ورد ذكر الصراط مجروراً بـ"على" في ستة مواضع من القرآن: (اثنان) لله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]

قال القرطبي: "والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه" (١). وقال ابن عاشور: "لأنه متصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله" (٢)

وآية سورة هود ترتبط بآية سورة النحل، فلا يمكن فهم إحداهما منعزلة عن الأخرى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

وللمفسرين في هذه الآية عدة أقوال، يهمننا منها هنا قولهم إنه مثل ضربه الله لنفسه سبحانه وللصنم، قال البغوي: "هذا مثل الأصنام لا تسمع ولا تنطق ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣٣/١٠

(٢) التحرير والتنوير، ١٠١/١٢

تعقل، وهو كَلٌّ على مولاه: عابده، يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، يعني الله فإنه قادر متكلم يأمر بالتوحيد، وهو على صراط مستقيم، قال الكلبي: يعني يدلکم على صراط مستقيم" (١) .

ويربط ابن القيم بين الآيتين، يقول: "ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم، وهذا في موضعين من القرآن في هود والنحل ... ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم، فإن دلالاته بفعله وقوله وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله فلا يناقض قول من قال إنه سبحانه على الصراط المستقيم" (٢) .

فالمولى سبحانه على الصراط لتبيينه ولأنه سبحانه نور السماوات والأرض، ولا هداية إلا به.

واثنان للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣١﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾ [يس: ٣ - ٤].

قال ابن عاشور: والمقصود منه: الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنه مرسل كغيره من الرسل. وعلى للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن" (٣)  
ويرى الزمخشري أن المراد بالآية " إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت" (٤)

وهذا يعني سنته صلى الله عليه وسلم، وكل ما أمر به من الفعل والكف عن الفعل. ﴿فَأَسْتَمِسِّكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾ [الزخرف: ٤٣]  
قال السعدي في تفسيرها: موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق" (١)

(١) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان

الحرش، دار طيبة، الرياض، ١٤١١هـ، ٣٣/١٤

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٢/١ .

(٣) التحرير والتنوير، ٣٤٦/٢٢

(٤) الكشف، الزمخشري، ص ٨٩٠

ومجمل ما يفهم من الآيات الأربع من استعلاء المولى سبحانه واستعلاء الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسلم الطالب لهداية الله إلى الصراط مأمور بطاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا اهتداء إلا بهما.

واثنان لسائر المهتدين إلى الحق: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩]

أما الموضوع الأول فمحل خلاف بين القدرية وأهل السنة، والأمر أبسط من تعقيدات القدرية، فلو رجعنا إلى سياق البداية الأولى: " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ "، فإلى أي الفريقين يرجع المضلل؟ وإلى أيهما يرجع المجعول على الصراط المستقيم؟ والذي يهم المؤمن أكثر هو سؤاله لنفسه: مع أي الفريقين أنا؟ وحبه أن يكون مجعولاً مع أهل الصراط.

وهذا ما علمه إياه ترديد سؤال الصراط في كل ركعة. فالجواب وحسم الأمر في سورة الفاتحة (ولعبدي ما سألت)، الجواب ليس في متاهات الجدل.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

### إنها المقارنة بين النموذجين،

قال الزمخشري: "يمشى معتسفاً في مكان معتاد غير مستوفيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيعثر على وجهه منكباً، فحاله نقيض حال من يمشى سويًا، أى قائماً سالماً من العثور والخور" (٢).

ويلفت النظر أن موضوعي الاستعلاء الخاصين بسائر السائرين على الصراط يحويان نموذجي الهداية والضلال، فهما يميلان على البداية الأولى، وينطبق عليهما كل ما قيل في البداية الثانية، وأولئك السائرون إنما ساروا بنور الله الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص ٧٦٦

(٢) الكشاف، الزمخشري، ص ١١٢٧.

هو سبحانه على الصراط ورسوله أيضاً على الصراط: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]

الله سبحانه وتعالى، وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم، هكذا تنبني عقيدة المسلم، بعبادة الله وطاعة رسوله واتباع كتابه في أوامره ونواهيه.

(في سبيل - عن سبيل) :

ليس في القرآن كله صد صراط الله، بل الصد عن السبيل، وليس في القرآن كله مسار على سبيل الله، بل في سبيل الله، فما المراد بالسبيل، قال ابن فارس: السين والباء واللام أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفلى، وعلى امتداد شيء ... والممتد طولاً: السبيل، وهو الطريق، سمي بذلك لامتداده" (١).

ولم يرد في القرآن الكريم أن السبيل مستقيم، على عكس الصراط، وذلك لأن الصراط إيجابي فقط، أما السبيل فقد ورد على كليهما، وتأمل قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْكَم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقد فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم:

عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً فقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فتفرق بكم عن سبيله" جامع البيان، ٦٧١/٩.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص ٤٨٢

فهناك سبل للشيطان، وسبيل واحد لله، خاطبه به حملة العرش:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَذَلِكُمُ أُولَئِكَ الشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعُغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أما الصراط فلن تجد إلا صراطاً واحداً في القرآن كله، ولعل هذا ما يبين العلة وراء ما مر بنا من اختيار لفظ معبر عن المسار المجازي الإيماني الرحامي لفظاً لا جمع له في لغة العرب، أما السبيل ففيه القتال كما فيه الإنفاق، والضرب في الأرض: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤].

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرَدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. إن السبيل يتميز بالتفاعلية الحياتية، ويحمل دلالات حركية تشبه المعاش الأرضي لإنسان، أما الصراط فلا يشعر أنه مسار فيه شيء من المادية أو الصخب، والحركة فيه لينة سهلة،

وللتفريق بين الأداتين (على، وفي) تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]. فقد جاء الهدى مجروراً بـ "على"، والضلال مجروراً بـ "في" وذلك "لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه" (١)

لذا ليس في القرآن كله "في صراط"، فالاستعلاء الذي مر بنا يمثل صورة نموذجية للمبدأ الحركي المتمثل في المسار المجازي.

وأمر آخر: فليس في القرآن كله عن صراط، إذ ليس فيه صد عن الصراط، وهذه النقطة تذكرنا بالمحاولة الفاشلة من إبليس "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ"، وهاهنا محذوف أشار إليه النحاة البصريون والكوفيون، قال الطبري: "فقال بعض نحويي البصرة: معناه لأقعدن "لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ"، كما قال: "توجه مكة"، أي إلى مكة... وقال بعض نحويي الكوفة، المعنى، والله أعلم: لأقعدن لهم على طريقهم، وفي طريقهم" (٢)

فالحديث هنا عن ضعف سلطان إبليس عبر إقرار لغته بذلك الضعف فهو لم يجرؤ على أن يستعلي على الصراط، فأصحاب الصراط لا سلطان لإبليس عليهم، لذا فهو حين يعلم بحدود إضلاله التي لا تدخله إلى نطاق الصراط يكرس مساعيه للصرف عن الصراط، لذا يتحول إلى الصد عن السبيل:

﴿وَجَدْتُهُمْ وَاقِفَةً يُسْجِدُونَ لِلشَّمْسِ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَرَبُّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٤]. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعُودُنَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٤٥]

فالسبيل يتعرض صاحبها للصد عنها، وأعداؤها يبعونها عوجاً، أما الصراط فليس هناك من يملك أن يصد عنه السائرين، ولا يبتغي له العوج.

(١) الكشف، الرمخشري، ص ٨٧٤.

(٢) الكشف، الرمخشري، ص ٨٧٤.

## المسار المجازي في القرآن الكريم: البناء العقدي للإنسان

إن بناء الإنسان من خلال مفهوم المسار المجازي ببناء شديد الدقة، يعينك على التعرف على دقته تتبع الدقيق للتركيب التي يتخذها اللفظان الرئيسان الواردان في التعبير عن ذلك المسار المجازي، فالسبيل موضوع ليعبر عن حركية وصخب وفيه الموت والقتال والإنفاق والهجرة، أما الصراط فهو خالص لله صراطاً واحداً لا ثاني له في عقيدة ولا في سلوك ولا لغة. وإن لغة القرآن تبني مخاطبيه من مسلمين وغير مسلمين على نمط لغوي يتميز بالدقة الدلالية الناظرة إلى طبيعة حياة الإنسان بين طابع حياتي عام يصيب فيه ويخطئ، ويتعامل، وينجح ويخفق، فتسمي لغة القرآن كل توجيه يتلقاه المسلم في هذا النطاق الحياتي المادي بالسبيل.

وكذلك فإن هذا الإنسان يعبد ويتقرب ويخلص دينه لله، وهذا السلوك العقدي سلوك يتميز بالروحانية والخلوص لله، وهذا ما وعاه إبليس قبل الإنسان حين عبر عن الفارين من سلطانه إلى جوار الله بالمخلصين.

لذا فإن القرآن عبر المسارين المجازيين يلفت نظر مخاطبه إلى أنه متى وجد لفظ السبيل فعليه أن يتهيأ لتلقي توجيه يتعلق بالحياة وطبيعتها الصاخبة بين الصد والدماء والموت والقتل، وكذلك بين الهجرة والإحسان والجهاد والإنفاق.

### الخاتمة والتوصيات

١- انبنى جزء كبير من تعاليم الدين على مبدأ المسار المجازي، فقد مثل مركزاً أساسياً للعقيدة والسلوك، ومن ثم فهو ذو أثر مؤكد في بناء شخصية الإنسان المسلم.

٢- يستقطب المسار المجازي غير المسلم حين يسخر اللغة لتضع أمامه بناء يسهل التعامل معه مجسداً في البدايتين اللتين عبرهما يسهل استيعاب مبدأ المسار المجازي، فحين يريد غير المسلم أن يتعرف على الإسلام فهو سيلجأ للقرآن ليعينه على هذا الفهم، ومفتتح القرآن هو سورة الفاتحة التي ترسخ في عقله فكرة المسار المجازي.

٣- لفظ الصراط لفظ عربي أصيل، وقد دلت النظرات السابقة فيه لدى المفسرين واللغويين على أنه لفظ لا جمع له في استعمال العرب رغم إقرار أولئك الناظرين بوجود قياس لصياغة ذلك الجمع، وقارئ القرآن سيدرك أن الصراط في القرآن صراط واحد لله وحده، وأن اللغة قد أيدت عبر توحده عقيدة التوحيد، حينها سوف يتأسس في عقله ووجدانه أن المسار الموسوم بهذا الاسم حقيق بالوقوف عنده واتخاذ منهجاً عقدياً وسلوكياً.

٤- يبدأ الصراط في القرآن الكريم بداية،  
أولاهما مع أول ذكر تاريخي له مع الحوار بين المولى سبحانه ولعينه إبليس،  
وينتهي بالإنسان في جنة أو نار،

والثانية تبدأ مع أول سورة في ترتيب المصحف وهي الفاتحة التي يسأل بها المسلم ربه الهداية للصراف، وختتم المصحف بسورة الناس التي يتعوذ فيها المسلم من الوسواس الخناس الذي أقسم على القعود له على الصراط المستقيم.

٥- لم يترك المفسرون والدارسون للغة القرآن عموماً من أمر الصراط شيئاً إلا تناولوه، فإن ندد عنهم أمر علمي فما هو بما ينقص من شأن جهودهم، بل هو مما يؤكد أن عجائب القرآن لا تنقضي، وأن الأمة موعودة بجديد من المبادئ التي يخرجها الناظرون في الكتاب العزيز يوماً بعد يوم.

#### ٦- المسار المجازي ذو شقين:

- شق عقدي خالص لله سبحانه، يتبع به المسلم عقيدة تنجيه من الضلال والهلاك وهو الصراط، وهذا الشق من شأنه أن يمثل بناءً لعقيدة المسلم ومبيناً للباب الذي يطرقه غير المسلم ليتعرف على الإسلام.

- وشق سلوكي يبيّن منهج الإنسان المسلم في التعامل مع الحياة بطابعها الصدامي أو طابعها التسييري اليومي.

٧- لذا يظهر لنا مفهوم السبيل باعتباره مفهوماً مفارقاً لمرادفه الصراط في طبيعته الصدامية المادية، وملتقياً معه في أن كليهما يجسدان متكاملين بناء لعقيدة المسلم وسلوكه، ويؤسسان شخصية تعيش بالله والله.

٨- لم تبح اللغة القرآنية بكل أسرارها في أمر المسار المجازي، فهناك الكثير مما يمكن أن يقال عن مرجعيات المسار المجازي ومؤدباتها الدينية والدينيوية.

#### التوصيات:

**التوصية الأولى:** مغادرة التفسير الموضوعي لجزئية الدوران على المنهج

الوصفي، فما الذي يضير أولئك الباحثين إن تعمقوا منتقنين عن مداخل تحليلية تكشف كثيراً من كنوز القرآن.

التوصية الثانية: تأسيس كيان علمي بهدف للضبط العلمي لمخرجات النظر في الخطاب القرآني في بحوث وآراء من اعتلوا منابر الإعلام الذي دخل كل بيت، وانتهك حرمة كل فن.

هؤلاء المغربون في مقالهم يجب التصدي لهم عبر كيان علمي قانوني التأسيس يتوافق عليه المسلمون، وينتدبون له علماءهم الربانيين ليحكموا على ما جاء من كل متحدث عن الكتاب العزيز، ويقوموا ما اعوج من الفكر الذي له من التأثير على بناء شخصية المسلم ما ليس يخفى.

فرغت بذلك من بحث متواضع راجياً من العزيز الرحيم أن يتقبل ما كان فيه من الصواب، وأن يعفو ما كان مني فيه من خطأ أو تقصير. والشكر والامتنان لمركز مكة العالمي للهدى القرآني، وللقائمين على أمر المؤتمر المبارك، نسأل الله لهم العون والتيسير وإجزال الأجر.

### قائمة المصادر والمراجع

- ١- الإتيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.
- ٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.
- ٣- أصالة لفظ الصراط: أدلة وبصائر، أمين عبد الكريم، مجلة كلية الشريعة، جامعة القرويين، العدد ٢٠، ١٩٩٥م، صفحات: ٨٥-١٠٦.
- ٤- الإفصاح في معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.
- ٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار اشبيليا، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- ٦- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق خالد العلي، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٢٩، ٢٠٠٨م.
- ٧- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ٨- تحصيل نظائر القرآن، الحكيم الترمذي، تحقيق حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

## المسار المجازي في القرآن الكريم: البناء العقدي للإنسان

- ٩- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٠- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٢- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٣- شرح طيبة النشر في القراءات، شمس الدين بن الجزري، تحقيق الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- ١٤- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ١٥- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- ١٦- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ١٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن البراك، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ١٨- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١٩- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

- ٢٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ٢١- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فواد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٢- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٢٣- منازل السائرين، عبد الله الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٤- موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الصراط، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٤٠هـ.
- ٢٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٠م.
- ٢٦- النكت والعيون، علي بن محمد بالماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.
- ٢٧- الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.